

الشيخة العالمة الأدبية عائشة الباعونية 923/865هـ

دفنت بتربة الروضة بسفح قاسيون في دمشق

الباحثة نبيلة حسن القوصي

(كان مما أنعم الله تعالى به علي أنني بحمده لم أزل أتقلب في أطوار الإيجاد، في رفاهية لطائف البرّ الجواد، إلى أن خرجت إلى هذا العالم المسجون بمظاهر تجلياته، الطافح بعجائب قدرته وبدائع آياته، المشوب مرارة بالأقدار والأكدار، الموضوع بكمال القدرة والحكمة للابتلاء والاختبار، دار ممر لا بقاء لها إلى دار القرار، فرباني اللطف الرباني في مشهد النعمة والسلامة، وغذائي بلبان مدد التوفيق لسلوك سبيل الاستقامة في بلوغ درجة التميز، أهلني الحق لقراءة كتابه العزيز، ومنّ علي بحفظه على التمام ولي من العمر ثمانية أعوام، ثم لم أزل في كنف ملاطفات اللطيف حتى بلغت درجة التكليف).

إخوتي الكرام:

تدعوكم زاوية (معالم وأعيان) للتعرف على نموذج نسائي دمشقي مضى في زمن مضى من أرض دمشق المباركة، فقيهة شافعية امتلكت براعة في فقه المذاهب الأربعة، وشغلت منصب الإفتاء والتدريس، زاهدة عابدة عارفة بالله أديبة شاعرة، وزاد شكرها وحمدها للمولى أن شرفها بسكنى الشام لتبدع بقصائد لها خلّدت ذكرها على مر العصور، وما زالت تطرب المشتاقين العاشقين للنبي المختار، ففرّق الإنشاد تشدو بقصائدها الرائعة، ومن عرف قلبه هذا الحب الأصيل الراقى فلا يسلك إلا مسلك الإحسان للخلائق، فهم عيال الله (أحبهم إلى الله أنفعهم لعياله)...

سيرتها ملأت كتب كبار العلماء كالغزي وابن العماد الحنبلي وغيرهم، وصنّف اسمها في موسوعات الشعر العربي الأصيل، حيث كتبت قصائد كثيرة في مدح النبي، وتصدرت قائمة المكرمين في منظمة اليونسكو عام 2006 م ...

تأمل أيها الساكنُ دمشقَ تغنيها بها، حفظها الله وسائر المدن، فقالت:

نزه الطرف في دمشق ففيها	كلما تشتهي وما تختار
هي في الأرض جنة فتأمل	كيف تجري من تحتها الأنهار
كم سما في ربوعها كل قصر	أشرقت من وجوهها الأعمار
وتناغيك بينها صارخات	خرست عن نطقها الأوتار
كلها روضة وماء زلال	وقصور مشيدة وديار

هل تشوقنا إلى معرفة من هذه السيدة الجليلة التي سطرت اسمها بماء الذهب في كتب العلماء بعد أن جاهدت نفسها وهذبتها بإشراف أسرتها العلمية التي أرشدتها للتففة بالعلم الحقيقي والتعلق بالحبيب الأصيل فكان علمها وعملها وقصائدها الرائعة عنواناً لأسمها عائشة الباعونية..... مثلت تماماً قول النبي: (من أراد الله به خيراً يفقهه في الدين).

اسمها ومولدها:

يقول ابن العماد في شذرات الذهب: هي (عائشة بنت القاضي يوسف بن أحمد بن ناصر بنت الباعوني، المعروفة بالباعونية).

الشيخة الصالحة الأدبية العاملة العاملة أم عبد الوهاب الدمشقية أحد أفراد الدهر ونوادير الزمان فضلاً وأدباً وعلماً وشعراً وديانة...).

ويتابع واصفاً هذه العاملة الجليلة: تنسكت على يد السيد الجليل إسماعيل الخوارزمي، ثم على يد خليفة الحيوبي يحيى الأرموي.

ووصفها الشيخ عبد الغني النابلسي: (أنها فاضلة الزمان وحليفة الأدب في كل مكان).

وباعون من قرى عجلون في شرق الأردن، فنسبتها إلى (باعون) تعود لجدها الخامس أو السادس ووالدها مقدسي المولد عام 805 هجري ويكنى القدسي أما عائشة ولدت في صالحة دمشق في عام 865 هجري، نشأت في بيت فقه وعلم وأدب بين أحضان أسرتها التي سكنت دمشق حبا وعشقا لأرضها المباركة فانعكس ذلك على شخصيتها العلمية والفقهية والأدبية بامتياز.... كان الدمشقيون يجلوها ويحترمونها فهي بعلمها المتين والخلق النبوي الأصيل قد فرض هيبتها بين الناس..... تخبرنا المصادر أن هذه العائلة تتبع أسلوب التدريس العائلي فجدها تعلم على يد أخيه وأخواها تتلمذوا على يد عمهما.... وهي تتلمذت وتعلمت وحفظت القرآن في الثامنة من عمرها بين أحضان عائلتها.... فما أروع أن نسلط جل اهتماماتنا الاسرية التربوية بطريقة علمية دينية ذوقية أدبية ننظر إلى المستقبل بعيون نبوية راقية عالية لينشأ مجتمع صالح سليم معافي من الأمراض الأخلاقية السلوكية والنفسية.... فهل سيظل هذا تمني أم تغني فقط؟ ونحن يومياً يودع الناس بعضهم لبعض لمن كان بالأمس مؤنسه وجلسه على الأرض.... نسأل الله العفو والعافية والسلامة عن كل وصفا يباعد عن رضى الله ورسوله.....

فهذه السيدة العالمة الشاعرة تلقت منذ الصغر الرعاية الأسرية بامتياز متتبعين منهج النبوة بحب وشغف أسمعها والدها علوم الدين واللغة والأدب من شيوخ وعلماء الشام ورحلت إلى مصر لتنهل من علمائها فالعلم الأصيل لا يعرف له حدود هذا ما ميز العلماء المسلمين الكبار وتابعت تعلمها على يد شيوخ دمشق الكبار أمثال إسماعيل الخوارزمي ثم يحيى الأموري.....

وصار لها حلقات تدريس وتخرج العلماء الكبار من مجالسها ... ولم تتوقف عن التعلم والتدريس وكانت من الخطاطات صاحبة خط جميل كتبت معظم مؤلفاتها بخطها

نالت إعجاب معاصريها من العلماء وتقديرهم لها لإتقانها علوم الدين والفقه والتصوف بوع وسمو أخلاق أجزت للإفتاء والتدريس ثم أخذت بعد ذلك بالتأليف والكتابة حتى أصبح لديها مجموعة كبيرة من الكتب النافعة للقلب والعقل.... جاءت فيما بعد قصائدها البديعية للنبي جائزة لروحها التواقة المشتاقة للنبي بنسمات روحانية عالية الوصف ففاقت شهرتها البلاد.

ومن كتبها:

نظمت بديعتين ومعنى البديعية هو نظم ينظمه الشعراء على وزن البحر البسيط في مدح النبي الكريم: (بديع البديع في مدح الشفيح). (الفتح المبين في مدح الأمين). وأشهر من عرف بذلك البوصيري وابن الفارض وجاءت هذه السيدة من بعدهم لتزيد وتسكب من دلوها في مدح النبي بعاطفة رومانسية روحانية رائعة ولازال المنشدين يتغزلون ويستعيرون من قصائدها الرنانة في الطرب بمدح سيد الكون والبشر....

تقول في مطلع بديع البديع:

أَصْبَحْتُ فِي زُمْرَةِ الْعُشَّاقِ كَالْعَلَمِ
وَالْجَارِ جَارٍ بَعْدَ فِيهِ مُتَّهَمِي
وَإِنْ هُمُ بِالْتَّنَائِي أَوْجَبُوا أَلْمِي
زَادُوا دَلَالاً فَنِي صَبْرِي فَيَا سَقْمِي
إِلَّا خَلِيْعٌ صَبَا مِثْلِي إِلَى الْعَدَمِ
بِحُكْمِي الْفَاضِحِينَ الدَّمْعِ وَالسَّقْمِ

فِي حُسْنِ مَطْلَعِ أَقْمَارِ بِنْدِي سَلَمِ
أَقُولُ وَالِدَّمْعِ جَارٍ جَارِخٍ مُقْلِي
أَحِبَّةٌ لَمْ يَزَالُوا مُنْتَهَى أَمْلِي
عَلَوْا كَمَا لَأَجَلُوا حُسْنًا سَبَّوْا أَمَّا
بَلَّغْتُ فِي الْعَشْقِ مَرْمَى لَيْسَ يُدْرِكُهُ
كَتَمْتُ حَالِي وَيَأْبَى كَتَمَهُ

شَحَنِي

أَحَبَّةٌ مَا لِقَلْبِي غَيْرُهُمْ أَرَبْتُ
 هُمْ شَمَائِلُ بِالْإِحْسَانِ قَدْ شَمَلْتُ
 مُحَمَّدَ الْمُصْطَفَى ابْنَ الدَّبِيحِ أَبُو
 خَيْرِ النَّبِيِّينَ وَالْبُرْهَانَ مُتَضَحِّجًا
 وَحُبَّهُمْ لَمْ يَزَلْ يَرِيوُ مِنَ الْقَدَمِ
 وَعَلَّمْتُ كَرَمَ الْأَخْلَاقِ وَالشِّيمِ
 الزَّهْرَاءِ جَدِّ أَمِيرِي فَتِيَةَ الْكَرَمِ
 عَقْلًا وَنَقْلًا فَلَمْ نَرْتَبْ وَلَمْ نَهَمِ

كتاب (در الغائص في بحر المعجزات والخصائص) وهو قصيدة رائة.

. كتاب (الإشارات الخفية في المنازل العلية) وهو أرجوزة.

. كتاب (الملاحم الشريفة والآثار اللطيفة) يحتوي على إنشاد صوفي ومعارف ذوقية.

. (القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع) أرجوزة ملخصة للسخاوي.

. (المورد الأهنى في المولد الأسنى) باسم مولد النبي للباعونية.

. (فيض الفضل).

. لها مصنفات كثيرة في الشعر والنحو والعروض والفقه والسنة النبوية زادت على عشرين من

الكتب النافعة والمفيدة.... ولها موشحات وزجل نظمته بفن وذوق أدبي رفيع ذاع صيتها وأصبحت

مشهورة في العصرين المملوكي والعثماني فقد عاصرت أواخر الدولة المملوكية وأوائل الدولة العثمانية،

وأهم مرحلة في حياتها عندما سافرت للحج والعمرة ومن ثم جاورت النبي صلى الله عليه وسلم

وأخذت في الكتابة بعد أن طافت نسيمات مقدسة من حولها فأمدتها بمدد صلوات ربي عليه...

وفاتها:

توفيت في دمشق عام 923هـ وقبرها في أعلى الروضة أي شمال (جامع المظفري) بدمشق.

(رحمها الله).

وهي تربة الموقف المقدسي المتوفى عام 620هـ، وتربة الروضة أعظم تربة في السفح وسبب

تسميتها بالروضة أنها رؤيت غير مرة أنها روضة من رياض الجنة بعد أن دفن فيها الموقف رحمهم الله

جميعا.

إخوتي:

وصلنا إلى الورقة الأخيرة في سيرة هذه السيدة الفاضلة، التي خلفت ورائها العلم النافع والولد الصالح تركت بين أيدينا حكايتها العطرة، نشتم شذى عطرها عند قراءة قصائد مدحها للنبي العدنان... لقد عملت هذه السيدة بحديث المصطفى القائل: (إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له).

رحم الله هذه السيدة وجزاها الله خيراً، فقد كانت سيرتها تنبئاً للغافلين ذوي الهمم الخافتة الكسولة البعيدة عن الإعمار الذي يناسب هذه الأرض المباركة.

فالجميع سيقف بين يدي المولى وكتاب أعماله بيديه... نسأل الله التوفيق والنفع في قراءتنا هذه، وأن يلهمنا حسن التصرف بما يرضي الله ورسوله....



المصادر:

شذرات الذهب في أخبار من ذهب / لابن العماد.
 أعلام النساء / لرضا كحالة.
 معجم المؤلفين / لرضا كحالة.
 الأعلام / للزركلي.